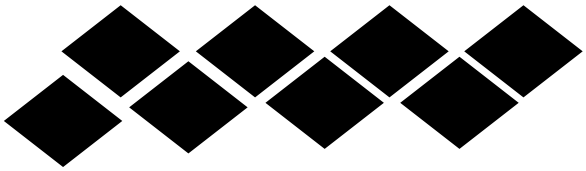

مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

(نظرية النزوع في الأخلاق الرواقية)

الباحثة

نيفين محمود الطاهر حامد

المقدمة:

تعد الأخلاق الفاضلة من الأركان الرئيسية في بناء السعادة، وفائدتها للمجتمع تتوقف علي تطبيق الأفراد لها فمتي ما التزم الفرد بالأخلاق الفاضلة عمَّ الأمن والأمان والاستقرار في المجتمع، لذا فلم يعد ينظر إليها باعتبارها مبحثاً فرعياً من مباحث الفلسفة وحسب، بل صارت اليوم سؤال الفلسفة برمتها مما يمنحها بعداً كونياً يساهم في إثرائه كل مشتغل بالفلسفة بغض النظر عن انتمائه الجغرافي أو المذهبي وهو ما أدركه فلاسفة الرواقية قديماً عندما أولوا جل اهتمامهم بدراسة الأخلاق فقد اعتقدوا بأن الإنسان يولد بنزعة إلي الفضيلة مصدرها الأصل الإلهي للنفس البشرية، وسعوا طوال تاريخهم جاهدين لإثبات هذا الاعتقاد من خلال نظرية النزوع فأخرجوها مكتملة الجوانب من حيث العالمية و المعقولية فهي: تصدق علي كل إنسان في كل مكان، كما تنطبق عليها معايير المعقولية من الجانب النظري و تحتمل إمكانية التطبيق علي الجانب العملي. وقد نوهت معظم الكتابات في تاريخ الفلسفة القديمة إلي أن تصور النزوع كان جوهرياً في الأخلاق الرواقية، وهو تصور مؤداه أن النزوع هو شئ ما يوجد في الكائنات البشرية منذ الولادة، وهو علاقة أولية بين المرء وذاته تبدأ بمعرفة ذاتية يعقبها نشاط يشتمل علي رغبة في دعم وحماية الذات، وكان هذا هو مضمون النظرية في طورها الأول كما صاغها زينون الذي أولي اهتماماً كبيراً للطبيعيات، لذا خرجت النظريه بهذا الشكل المقتصر علي اعتقاد تزويد الطبيعة للإنسان بميل يتفق مع كل ما يتوافق معها، متجاهلاً دور الإنسان في التفاعل مع هذا الميل، وعليه فقد واجهت النظرية تحدياً أبيقورياً مدعوماً من الواقع متمثلاً في عدم إلتزام حديثي الولادة بالسلوك الفاضل، وكذا إستحالة تحلي الجميع بالفضيلة.

ولكن مع تحول الفكر الرواقي نحو الإنسانيات في المرحلة المتوسطه وإقرار روادها بوجود الميول والأهواء في النفس البشرية، رأي الرواقيون أنه مع بلوغ العناصر العاقلة للأفراد مرحلة النضج يتحول ذلك النزوع الأولي من النفس الفيزيقية أو البيولوجية إلي النفس العاقلة، التي يصبح تهذيبها وكمالها هو الهدف الملائم لاستقامة الحياة البشرية، وبهذا استطاعت الرواقية تجاوز التحدي الأبيقوري.

ثم أضيف تطبيق ثالث للنزوع يتضح من خلال قرائن وصور متعددة وهو علاقة الفرد بالآخرين، ومن خلال هذه النقطة انضم جانب العلاقات الاجتماعية لنظرية النزوع علي يد رواد الرواقية الرومانية الذين ركزوا علي الجانب الديني الروحاني الذي كان بمثابة السياج الذي أكمل به الرواقيون جوانب النظرية بتقديمهم لطرق التعامل السليم مع النفس والآخر .

أولاً: مفهوم النزوع .

يحتمل الفعل "ينزع" الكثير من الإيحاءات التي تستخدم للتعبير عن العلاقات التي تربط بين أفراد الأسرة الواحدة والأصدقاء الحميمين، ونظراً لصعوبة ترجمة مصطلح النزوع ترجمة حرفية كما أن محاولات تحصيل معانيه لم تكن مرضية بالشكل الكافي، فهناك إمكانية للربط اللغوي بينه وبين مصطلح آخر هو الميل، ويخبرنا علم الصرف بأن عملية النزوع تصدق بالفعل علي الأفعال ذات الصلة بالأسرة وما يرتبط بها من علاقات أسرية، لذا كان من البديهي أن نتوقع أن كلمة نزوع تشير إلي وجود رابطة اضطرارية تربط بين أفراد الأسرة وذوي القرابة، ويحتمل أيضاً أن تشير إلي أي شئ يشعر المرء حياله بالتقارب والتآلف، أو شئ يعتبره المرء ملكاً له أو يخصه وغيرها من الكلمات التي تحمل المعني نفسه[١]، والنزوع فلسفياً هو حركتنا نحو تحقيق وجودنا، أو إجابة نداءاته، فالنزوع للخلود مثلا يكشف على المستوى الواقعي عن المسافة و المفارقة، أي أننا لو كنا خالدين فعلاً لما كان هناك معنى لمحاولة البحث عن الخلود أصلاً، لكنّه في الوقت ذاته يكشف على المستوى الوجودي عن بعض حدود التعريف الخاصة بنا، لأن المعنى الوحيد للفقدان هو الوجود السابق له، والمعنى الوحيد لبحثنا عن شيء نفقده كالخلود هو كونه جزء منا أصلاً[٢]. أما النزوع أخلاقياً فهو مصطلح أفرزته الفلسفة الرواقية وكانت تعني به أن الإنسان مولود بنزعة إلى الفضيلة وكانوا دائما ما يقولون إننا جميعا من صنع الطبيعة حتى نستطيع العيش معا بشرف بلا أخطاء، وليس ذلك لأن هناك من يقدر وهناك من يعجز بل الجميع سواء بسواء[٣].

ثانياً: الإرهاصات الأولي لنظرية النزوع

ينطبق علي نظرية النزوع ما ينطبق علي جميع الأفكار الهامة في الفكر الغربي، حيث نجد أسس النظرية والمفاهيم المتصلة بها في حال اقتفاء أثرها عند الكتاب السابقين علي الرواقية، وعليه يمكن إرجاع فكرة النزوع إلي هوميروس، فقد كان الرواقيون مثل باقي اليونانيين يكنون احتراماً عميقاً لهوميروس وقد لاحظوا من خلال قصائده الملحمية تركيزه الشديد الذي أولاه للمشاعر الفرعية أو الأشياء التي نحبها ومن ثم نحميها

---

[1] -Tad Brennan: The Stoic Life:Emotions,Duties,and Fate,Clarendon,Oxford University Press,2005, p.154,155

[2] - https://ahmedoaz.wordpress.com26/8/2013

د/ أحمد الزعتر: النزوع كمكان للفلسفة -١-في-فلسفة-النزوع،مقال:

[٣] - موسونيوس روفوس: سقراط الروماني ، ترجمه إلي الإنجليزية ألفريد . ر. بيلينجر، ترجمه إلي العربية د/ حمادة أحمد علي، وعمر الفاروق عمر ، دار آفاق للنشر والتوزيع ،القاهرة ،٢٠١٨م، ص٣٧-٣٩

بالتزامنا للفضيلة لكونها من ضمن ممتلكاتنا، والمقارنة الدائمة بين حياة الفرد والمجتمع وبين العالم الطبيعي، حيث يظهر بوضوح أن الشاعر قد لاحظ أوجهاً عديدة للتشابه بين السلوك البشري وكافة جوانب العالم المادي تقريباً، بما في ذلك الحيوانات والنباتات وحتي الطقس[٤]،تجدر الإشارة إلي أن عناصر النظرية الرواقية يمكن أن توجد في الكتاب الخامس من جمهورية أفلاطون في القسم الذي يرمز لسقراط باسم الموجه الثانية، وتجدر الإشارة إلي أن عناصر النظرية الرواقية يمكن أن توجد أيضاً في الكتاب الخامس من جمهورية أفلاطون في القسم الذي يرمز لسقراط باسم الموجه الثانية، وهو قسم يتناول أشهر المسائل السقراطية، كمعالجة سقراط لبعض الأمور الفاضحة، واقتراحه لبعض التشريعات حول العلاقات الجنسية السائدة وقتها، كوضع حد للجدل حول فكرة إلغاء الزواج أو جعله جائزة لمن يربح في ألعاب الحظ ، وقد كانت في الأصل خدعة يلجأ إليها كل راغب في تحسين النسل، حيث فرضت العائلات علي أبنائها الزواج من داخل العائلة وتأسيس الأسر الممتدة، حيث لم يكن نظام الأسر النووية مقبولاً في المجتمع اليوناني إلا أن هذه المسائل لم تكن هي النقطة الجوهرية التي دارت حولها موضوعات الموجة الثانية، إن الخيط الذي يربط تلك المسائل ببعضها هو فكرة النزوع، إذ أن الهدف من إلغاء الأسر النووية هو تصحيح مواقف المواطنيين من أولئك الذين ينزعون إليهم، لأن تدمير فكرة الأسر النووية من شأنه توحيد النزوع السائد في المدينة بديلاً عن قصر التعامل علي ذوي القرابة العضوية، بمنطق إذا كنت قريب فأنت عزيز، أما بمنطق النزوع الموحد فسوف يتعامل المرء مع الجميع كإخوته وأخواته ووالديه وأبنائه. وتلك كانت الرسالة التي كان يهدف إليها سقراط من مناقشاته حول الصراع. إننا بحاجة لجعل مشاعرنا نحو الأقارب تمتد لتشمل المدينة بأكملها بل وتشمل كل مدن اليونان بل وكذلك تشمل أولئك الذين ندخل معهم في حروب أحياناً ووجد الرواقيون كذلك أن الموجة الثانية قد حوت اقتراحات قياسية حول تمديد الفرد لمشاعره من دائرة ما يخصه إلي الخارج[٥]، فتندمج دائرة المشاعر النزوعية بالدوائر الأوسع، وذلك من خلال رؤية أفلاطون عن أنه يجب علينا أن نشعر حيال كل من حولنا بنفس الطريقة التي نستخدمها مع من تربطنا بهم

4- 15-David Craig Noe:Oikeiosis,Ratio And Natura The Stoic Challenge to Cicero's Academism in De Finibus and Natura Deorum,OP,Cit,P.29

5- Plato, Book V of Plato Republic **"second wave",** نقلاً عن Tad Brennan,في The Stoic Life :Emotions Duties ,and Fate, Part III: Oikeiosis and Others,Clarendon,Oxford University Press,P.159

علاقة الدم، وأن ندعو كل أفراد المدينة بمسميات مثل: أب وأخت وعم وغيرها...، وأن يكون تعاملنا معهم توافقياً، وتلك هي الفضيلة التي يجب علي الإنسان السعي لتحصيلها إذ الفضيلة الإنسانية طبقاً لأرسطو هي فعل من أفعال النفس العاقلة وليست فعلاً من أفعال الشهوة أو اللذة[٦] ، ويعد كل ما سبق إرهاصات أولي لنظرية النزوع وقع عليها الرواقيون في آثار السابقين، كما تفاعل معاصري الرواقية مع نظريتهم سلباً وإيجاباً، فقد توافقت النظرية في مجملها مع الآراء الكلبية في حين لاقت تعارضاً شديداً من الآراء الأبيقورية التي كانت تجعل من اللذة غاية قصوي للحياة، وقد بني الرواقيون الأوائل نظرية النزوع علي أساس نقطتين جوهريتين:-

أولهما: إدراك الإنسان أن له طبيعة خاصه تتميز عن باقي الكائنات الحية لكونها طبيعة عاقلة .

وثانيهما: الإعتقاد بأن تلك الطبيعة الخاصة لديها ميل متأصل للحياة وفقاً للطبيعة الكلية التي تحكمها الفضيلة .

ثالثاً: نظرية النزوع ومراحل تطورها

ولقد كان زينون هو أول من أطلق عبارة "الحياة وفقاً للطبيعة[٧]، قاصداً التأكيد علي أن الغاية التي يسعي إليها السلوك الإنساني هي العيش وفقاً للطبيعة التي هي في نفسها في نظره حياة فاضلة ويبدو أن الرواقيين قد أدركوا من خلال رؤيتهم السابقة للحياة وفقاً للطبيعة أن للإنسان في حياته العملية وظيفتان:-

الأولي: أن يدرك جوهر الطبيعة الخارجية ويتعامل معها علي أنها عقل متحجر ينبغي فك طلاسمه ومعرفة دقائقه وأسراره، وهذه هي مهمة العلم والعلماء من البشر، وهي كذلك بلا شك من مهام الحكيم الرواقي .

والثانية: أن يدرك جوهره الخاص، وأنه قد تميز عن كل الكائنات الأخري بالعقل، ومن ثم فعليه أن يتصرف في حياته عموماً وفقاً للطبيعتين إن جاز التعبير بمعني طبيعته الخاصة العاقلة المتأملة المفكرة الباحثة عن الحقيقة في نفسه وفي الكون، والطبيعة الكونية التي هو جزء منها وهي تشمله برعايتها وتكفل له وسائل الحياة والعيش السعيد، وهاتان الطبيعتان وكذا الوظيفتان إذا نجح الإنسان في إدراكهما والتفاعل معهما بصورة إيجابية

---

[٦] - د.مصطفي النشار : تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي أرسطوطاليس ومذهبه الفلسفي ونظرياته العلمية ، الطبعة الثانية ،الدارالمصرية اللبنانية، القاهرة، ٢٠١٤، ص ١٧٣.

[7] - Diogenes Laertius: Live of Eminent Philosophers,Eng.Trans By D.Hicks(M.A),vol.I, London, William Heinemann-New York, G.P. Putnam's,without Date,VII-87,P.195..

يتوازن فيها ماهو خاص مع ماهو عام، ستكون حياته حينئذٍ هي حياة السعادة والفضيلة في آنٍ واحد.[٨] وقد أقر الرواقيون نوعين من الميول: ميول تنزع إلى حفظ الفرد نفسه، وميول تنزع إلى حفظ الجماعة التى ينتمى الفرد إليها، فكل موجود حى يملك فى الأصل بنيته الخاصة وله شعور بها، ومن أجل ذلك كان دائم البحث عما يلائمها والبعد عن كل ما لا يلائمها، ومن قال أن اللذة هى أول ما ترغب فيه الموجودات فقد أخطأ، إنما تحصل اللذة للموجود حين يجد ما يتفق مع بنيته، والخير لكل موجود هو موافقته طبيعته الخاصة [٩] وبانتقال الرواقية للدور الثاني فانتهج رواده أسلوب الدمج بين الثقافات وإذا كانت النفس البشرية تعد بمثابة المحور بالنسبة للنظرية موضوع الدراسة، فقد تناولت فلسفة بوذيدونيوس ذلك المحور بغية أن يشمل الإنسان والطبيعة معاً، ضمن جميع تظاهراتهما الأشد تعقيداً، بحثاً عن الروابط الدينامية بينهما، وكان بانتينيوس قد سبقه ورفض فكرة أن يكون للنفس شق واحد، وتبريره لرفض وحدة النفس هو أن قوة النفس ذات شقين، قوة في النزوع الذي يدفع الإنسان نحو هذا الطريق أو ذاك، وقوة العقل الذي يعلم ويبين مايجب فعله ومايجب تركه، فالعقل هو الذي يحكم والنزوع هو الذي ينفذ أحكام العقل[١٠]. وإن كان خريسيبوس قد اعتقد سالفاً بوجود الدافع والإدراك ولكن ليس كشقين للنفس بل كمرحلتي تطور عقلي لذات النفس الواحدة.

ثم جاءت آراء بوذيدونيوس المتأثرة بنظرية أفلاطون عن النفس لتدعم بانتينوس في مخالفتة لرأي خريسيبوس الذي اعتقد باستحالة تفسير الإنفعالات في حال الإمتناع عن التسليم بالتمايز والتسلسل الهرمي في النفس بين الملكات أو القوي التي استكشفها أفلاطون، ويمكننا بتدقيق النظر وبالرجوع إلي إيمان الرواقيه بارتباط الإنسان بالطبيعة نجد أنهم قد قاموا بإسقاط نموذج الطبيعة ككل علي نموذج الفرد فقط من أجل غرض واحد ألا وهو: إثبات آلية سعي الانسان نحو تحقيق الفضيلة أو الخير قياساً علي آلية قوانين الطبيعة، أي من أجل إثبات وجود نزوع طبيعي آلي لدي الإنسان نحو الفضيلة . لقد حاول الرواقيون معالجة إشكالية علاقة الإنسان بالآخرين من خلال دمجها بمسألة

---

[٨] - مصطفي النشار: تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي المدارس الفلسفية اليونانية في العصر الهللينستي، ، ط٢ ، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠١٥م ، ص٢٠٤

٩- عثمان أمين: الفلسفة الرواقية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧١، ص١٩٨.

[١٠] - إميل برهييه:، تاريخ الفلسفة ،الفلسفة الهيلينستية و الرومانية ، ترجمة جورج طرابيشي، ط٢، دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت، ١٩٨٨م ، ص١٨٥

الغايات من خلال نظريتهم عن النزوع، وفي الحقيقة ليس لدينا أي دراسة منهجية حول نظرية النزوع، ما لدينا هو خليط من النماذج العابرة التي وردت إلينا من كتابات شيشرون وسينيكا، وبعض المناقشات الجدلية لنقاد الرواقية، وبعض الأطروحات التي وردت من آلاف السنين عن الرواقي هيروكليس والتي كانت مفيدة جداً، إلا انه تم اختصارها في قطع من أوراق البردي، وبعض النصوص المنسوبة لديوجين لائرتوس، والتي تخبرنا عن عملية تسمي النزوع ، حيث تنزع الكائنات الحية للأشياء المتاحة لها[١١]، وإذا كان الرواقيين القدامي قد عرفوا النزوع بأنه شئ ما يوجد في الكائنات البشرية منذ الولادة، يبدأ بإدراك المرء لوجود هذا النزوع في نفسه ثم تتولد لديه رغبة في الحفاظ علي ذاته، و في الدور الثاني أدرك بانتينوس وبوذيدونيوس جوهرية دراسة النفس في إطار محاولاتهما لاستيعاب التحديات التي واجهتها نظرية النزوع، فقدما فهماً جديداً للنفس نتج عنه الاعتقاد بأنه: بالنضج والتعقل تصبح لدي المرء رغبة في تهذيب نفسه بغية الوصول بها إلي حد الكمال في علاقته بذاته وبالآخرين، ففي الدور الثالث بلغ النضج الرواقي مرحلة تمكنه من تقديم الطرق والوسائل التي يستطع بها المرء تهذيب نفسه وتزكيتها، ويكمل جوانب النظرية من خلال تحليل النفس البشرية كخطوة أولي للسيطرة علي العواطف والانفعالات[١٢] فكانت الفلسفة عند إبكتيتوس بمثابة فناً للحياة ومثلما أن المادة الخام التي يعمل عليها النجار هي الخشب، والمادة التي يعمل عليها المثال هي النحاس، كذلك الأمر في الفلسفة فإن مادتها أو خامتها، هي الحياة، حياة كل إنسان منا، فغاية الفلسفة عنده هي غاية عملية أخلاقية وهي إرشاد الناس الي طريق الحياة الصالحة، الطريق الذي يؤدي إلي اليوديمونيا أي الحياة السعيدة المزدهرة[١٣] إننا بمجرد أن نأتي للوجود نوجه نزوعنا مباشرةً نحو ذواتنا، ثم نحو أعضاءنا، وبعد ذلك نوجهه نحو ذرياتنا[١٤]، ومن هنا يتطرق إبكتيتوس إلي الجانب الاجتماعي للنظرية بعد أن شرح لنا مراحل المعرفة العقلية الثلاث الممثلة في الوجدان: وهو الذي يحدد الأشياء التي ينبغي علي الإنسان أن يرغب فيها والنزوع:وهو المسؤل عن الإقدام أو الإحجام عن تلك الأشياء قياساً علي توافقها مع الإرادة، والتصديق: المنوط به مهمة اختبار صحة

---

[11]-Tad Bernnan:The Stoic Life Emotions,Duties and Fate,OP,Cit.P.153 -

[١٢] - جلال الدين سعيد:، فلسفة الرواق دراسة ومنتخبات، مركز النشر الجامعي، ١٩٩٩، ص٥٠

[13] - Scaltsa Theodore and Andrew.S.Mason:The Philosophy of Epictetus,Oxford university press,2007, , P.18

[14] -Tad Bernnan:The Stoic Life Emotions,Duties and Fate,OP,Cit,P.157

الإنطباع عن تلك الأشياء من عدمه، وأكد علي أهمية العبور بها جميعاً وعدم التوقف عند أحدها لما ينتج عن هذا من تشوهات معرفية تؤدي بالضرورة إلي إصدار أحكام خاطئة من شأنها أن تصيب صاحبها بما يعرف بالإضطرابات النفسية، إذن فإبيكتيتوس يحرص أولاً علي تحقيق السلام الداخلي من خلال التوافق مع قوانين الطبيعة ثم يذهب إلي أن الأفعال القويمة إنما تقاس بالعلاقات التي ترتبط بها مثل علاقة الأخوة، الأبوة، البنوة، الصداقة، الزوجية، الجيرة، المواطنة، الزمالة، المهنة...إلخ، فيقول: العلاقات تحدد الواجبات إذن سوف تعرف واجبك إذا أنت اعتدت أن تتأمل العلاقات[١٥]، ثم أكمل سينيكا في رسالة هامة له باقي نظرية النزوع[١٦]، حيث ركز علي تطبيق المبادئ الأخلاقية الرواقية على حياته وحياة الآخرين بالمثل[١٧] وذلك بأن قدم نظرية في التربية لها جانبان: الجانب الأول متعلق بالنزعة الفطرية الغريزية للتربية، أما الجانب الثاني فمتعلق بالأمور المكتسبة فيري أن هناك أموراً مكتسبة تفيد في تصحيح وتهذيب الشخصية وأموراً تتعلق بطبيعتها وأصلها[١٨] فإن الطفل والبالغ لكل منهما بنية داخلية تختلف عن الآخر، وللنفس في مراحلها الأولي ميول تتصف بالآلية والثبات معاً، وهو متجه دائماً نحو الفطرة، لكن هذه الفطرة نفسها تتطور، لأنها تحتل مركزاً قيادياً في الجسم[١٩]، فعندما يكتسب البالغ الروح العاقلة أي بعد إضافة العقل لطبيعته، حينها يمكن تحديد أي نوع من التوافق يستطيع هذا النوع من الكائنات أن يحققه مع الطبيعة، بالقول أنه يعيش وفقاً للعقل، وعليه فإن الغاية النهائية و الخير الرئيسي للكائن الحي تتحدد طبقاً لماهيته أو إلي أي نوع من الكائنات ينتمي، والنزوع يكمن في قيادته للدوافع نحو الحفاظ علي بقاء ذلك النوع الذي صنف كأحد أفرادها[٢٠] وعليه يجب أن نحب أقاربنا سواء الذين

---

[١٥] - إبيكتيتوس:المختصر، نقله إلي العربية وشرحه وعلق عليه د.عادل مصطفي ، رؤية للنشر والتوزيع ، ط١، القاهرة ٢٠١٥م، ص ١١٥

[16] - Brad Inwood:Stoic Ethics, II Oikeiosis and primary impulse, Cambridge University Press ,2008. P.68

[١٧] - لوكيوس أنايوس سينيكا: لوكيوس أنايوس سينيكا: عن الشقاء والسعادة، ترجمه من اللاتينية إلى الإنجليزية إلينا ف انثام ، هارى هينه، جيمس كير، جريث وليام، وترجمها من الإنجليزية إلى العربية د. حمادة أ حمد على، دار آفاق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولي، القاهرة، ٢٠١٨م.، ص١١

[18]- Seneca; On Instinct In Animals, CXXI,in AD Lucilium Epistulae Morales,III, Translated by Richard M. Gummere, Harvard University Press,1917,P.397

[19] - Brad Inwood:Stoic Ethics,OP,Cit,.P.68

[20] - Tad Bernnan:The Stoic Life Emotions,Duties and Fate, OP,Cit,.P. 156

يتفقون بقانون الميلاد ونتمنى أن يبقوا أحياء، ونصلى لمن مات لنا سلفًا، ويجب أن نحبهم مع العلم بأننا لم نتلقى وعدًا بأن حياتهم ستدوم إلى مالانهاية.[٢١] وهنا يأتي دور العناية الإلهية فلا قيمة للحياة إن خلت من الإله وعنايته كما يقول ماركوس أورليوس متفقاً في ذلك مع إبيكتيتوس في اعتقاده بوجود صلة قرابة بين الآلهة والبشر مما يشعرهم بالنزوع نحوها والعمل علي التخلق بأخلاقها فيضيف أورليوس: فما قيمة الحياة لي في عالم خلو من الآلهة أو خلو من العناية؟ غير أن الآلهة موجودون حقاً، ويلقون بالاً لبني الإنسان، ولقد جعلوا بمقدور الإنسان أن يتجنب السقوط في الشرور الحقيقية[٢٢] وفي سياق حرصه علي صيانة النفس البشرية من الوقوع فيما يؤذيها يقول أورليوس: إنما تؤذي النفس نفسها، أول ما تؤذي عندما تصبح كياناً منفصلاً، أشبه بورم علي جسد العالم، فالسخط علي أي شئ تجري به الأقدار هو تمرد انفصالي عن الطبيعة التي تضم معاً الطبائع الجزئية لجميع الأشياء الأخري، وتؤذي النفس نفسها ثانياً حين تنأي بجانبها عن كائن إنساني آخر أو حين يلج بها الخصام فتعمد إلي إيذائه، تلك هي حال الأنفس التي استبد بها الغضب، وتؤذي النفس نفسها ثالثاً حين تستسلم للذة أو للألم، وتؤذي النفس نفسها رابعاً حين تتكلف وترائي، وتفعل أو تقول غير الصدق، وخامساً عندما تفقد الهدف في أي فعل من أفعالها أو ميل من ميولها،فتحيد عن القصد، وتخبطُ خبطَ عشواء، فالفعل مهما صغر ينبغي أن يؤدي لغاية ويرمي إلي هدف. وغاية الكائنات العاقلة هي أن تتبع العقل وتلتزم قانون أقدم دولة وحكومة .... العالم[٢٣]، ثم ينتقل أورليوس لمحل النزوع الثاني فيري أن العالم لا يتجزأ، بل يشبه الجسد تتضافر كل مكوناته لتخدم الإنسان، وقد ربط بين الفرد والدولة وجودياً، فأي ضرر يلحق بالمواطن العالمي هو ضرر للدولة، وأي عوار بالقانون هو تفسخ للدولة برمتها فلا يمكن فصل الفرد عن االدولة، أو عزل الدولة عن القانون، ويري ماركوس أن الإنسان الرواقي هو مواطن العالم، فالكون مدينته، والبشر إخوانه، وهذا الإنتماء الكوزموبوليتاني لا يتعارض بحال مع انتماء المرء لجماعته الخاصة، فهو إذن يعصمه من الشوفينية البغيضة، لا يمس

---

[٢١] - لوكيوس أنايوس سينيكا: رسالة عزاء إلي ماركيا، ترجمه من اللاتينية إلي الإنجليزية هاري هينة، ضمن كتاب عن الشقاء والسعادة، ترجمه من الإنجليزية إلي العربية د. حمادة أحمد علي، دار آفاق للنشر والتوزيع ،ط١ ،القاهرة ،٢٠١٨م ،الفقرة (١٠-٣) ، ص٤١

[٢٢]- د.حمادة أحمد علي: الفكر الهللينستي مذاهب وشخصيات، دار آفاق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولي ، القاهرة، ٢٠١٨م، ص١٤٢

[٢٣] - ماركوس أورليوس: التأملات، الكتاب الثاني، ترجمة د.عادل مصطفي، مراجعة وتقديم د.أحمد عتمان، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولي ، القاهرة، ٢٠١٠، ، الفقرة(٢-١٦) ، ص ٥٢-٥٣

عشيرته ولا بلدته ولا قوميته، بل يتراكز معها فحسب، إنما الإنتماء أشبه بدوائر متراكزة أي متحدة المركز، علي غرار ما سأعرضه لاحقاً مما ورد شرحه بالتفصيل عن هيروكليس الرواقي، ويتفق ماركوس أورليوس مع إبيكتيتوس وسينيكا وغيرهم من رواد الرواقية أنه لا يجمع الأخوة الإنسانية قرابة الدم، بل قرابة الانتساب إلي نفس العقل ونفس القبس الإلهي، ويري هيروكليس أن الوطن هو الرب الثاني، شكله زيوس علي صورته وشبهه ولكنه أنثي، لذا كان الوطن أو العالم يتحلي بالجلال، وقد ترتب علي ذلك أن المواطن والوطن شئ واحد، فإذا شاع الخير في الوطن لهو خير للمواطن والعكس، وقد وضع هيروكليس العلاقات الإجتماعية في المدينة الكونية علي هيئة مجموعة من الدوائر تبدأ بالإنسان الفرد، وتحيط دائرة الجنس البشري بكل الدوائر[٢٤]

وهكذا تعاقبت خطي رواد الرواقية الرومانية بتناغم كامل لإدراك نظرية النزوع الأخلاقي ككل واحد مكتمل الجوانب لا ينقصه شئ إلا دحض الادعاءت الباطلة المتمثلة في النقد الموجه للنظرية الأخلاقية التي أبدعها الفكر الرواقي .

رابعاً: نظرية النزوع من منظور نقدي

كان الزعم الأبيقوري باستحالة التزام حديثي الولادة بالسلوك الفاضل من أقوي التحديات التي واجهت نظرية النزوع، إلا أن التغير الذي طرأ علي الفكر الرواقي علي يد رواد الدور الثاني، من حيث محاولة التقريب بين الآراء المتباينة، وإدخال بعض التعديلات علي آراء السابقين ومنها اعتقاد خريسيبوس في الدور الأول بوحدة النفس، وخلافاً لذلك قال بانتينوس بأن قوة النفس ذات شقين، قوة في النزوع الذي يدفع الإنسان نحو هذا الطريق أو ذاك، وقوة العقل الذي يعلم ويبين مايجب فعله ومايجب تركه، فالعقل هو الذي يحكم والنزوع هو الذي ينفذ أحكام العقل، وقد زعمت الرواقية أن ميلاد المخلوقات الحية هو بداية تفاعلها مع الحياة، وأن صلاح نظرية النزوع في عالم البشر يأتي من ملاحظة اتجاه حديثي الولادة لطلب الأشياء الصحية ورفض ما يقابلها، وهذا يعني أن نظرية النزوع الرواقية إنما هي مشتقة في المقام الأول من ملاحظة عالم الحيوان، ثم تم تعزيزها بعد ذلك من خلال إسقاطها علي ظواهر مماثلة من عالم البشر، وبناءاً عليه يمكننا معرفة سبب اختيار حديثي الولادة كنقطة بداية، بمعني آخر: هل هناك شئ غريب يجعل من ملاحظة حديثي الولادة من البشر أو الحيوانات إما أكثر وضوحاً أو

[٢٤] - د. حمادة أحمد علي: الفكر الهللينستي مذاهب وشخصيات، ص١٨٤

أكثر إلحاحاً؟! من الواضح هنا حرصهم عل استبعاد أياً ما كان من شأنه أن يتداخل مع التقدم الطبيعي المؤدي بدوره للخير الأسمي[٢٥]، وتعارضاً مع الأراء الأبيقورية فهم بالأحري يريدون استبعاد اللذة كموضوع للانجذاب المبكر، وهو ما يستحيل استبعاده في الأعمار التي تظهر فيها النسبية بوضوح كما في مرحلة الطفولة المتأخرة أو المراهقة المبكرةويرون أيضاً أنه عندما تصل الفطرة التي تقود الشخص لمرحلة التعقل تظل ميوله ثابتة لا تتغير، والذي يعنينا الآن هو موضوع التعقل الذاتي، وما يمكن أن يحدثه مثل هذا الموضوع من فارق عظيم في بناء الأخلاق، فقد نجح الرواقيون في عبور الفجوة بين الشعور البدائي بحب الذات، وبين الالتزام بممارسة الفضائل، فتصور النفس كبنية فطرية واضحة وطبيعية، يجعلنا نتخطي الجزء الأكبر من الفجوة ولكن يظل الجزء الذي مازال مستوراً منها يمثل عقبةً كؤود، وهو المفارقة الموجوده بين طبيعية الأنانية أي وجود الأنانية فينا بشكل فطري وبين وجود الفضائل الإيثارية بشكل أساسي في السلوك الإجتماعي بين البشر، وفي ضوء علم الأحياء الوراثي **reproductive biology** باعتباره ليس غريباً عن الفلسفة اليونانية، فإن السلالات في أصلها إنما هي أجزاء من الآباء، لهذا فإن الحب الأبوي في حقيقته هو جزء لا يتجزأ من حب الذات، كما أن نمو هذه السلالات التي هي جزء منا بشكل استقلالي هو ما يجعلنا نواصل محبتهم[٢٦]، إذ أن الحالة النموذجية التي تعبر عن الارتباط النزوعي بشخص آخر هي تلك العلاقة التي تربط بين الآباء والأبناء، ومن المؤكد أن أولوية هذا الارتباط إنما هي أولوية مفاهيمية وليست زمنية، وهذا ما أدركه شيشرون وبلوتارخ، فلم يزعم أيٌ منهما أن الأشخاص البالغين لا يمكنهم الشعور بجاذبية العدالة إلا بعد إنجاب الأطفال، وعليه فقد صنفا الرابطة الأبوية كأصل للعدالة[٢٧]،لقد أعطت العقلانية علي هذا النحو الذي رأيناه بالفعل للرواقيين كل ما يحتاجونه لتشمل الفضائل الإيثارية ضمناً مع الفضائل المركوزة في حب الذات، هذا لأنهم يفترضون أن فكرة العقلانية ليست مجرد وسيلة فحسب، بل إنها فكرة موضوعية ثابتة عديمة التلون. إذ يظهر أحياناً تعارضاً بين الأفعال الإنسانية المتصفة بالإيثار والأخري المتصفة بالأثرة، وقد التزم الرواقيون في هذا الصدد وبدرجة مقبولة إلي حدٍ ما باعتبار أن بعض الحالات فقط هي التي يبدو فيها التعارض ظاهراً بوضوح أي اعتبار أن تلك

[25] - David Craig Noe:Oikeiosis,Ratio And Natura.OP,Cit,P.67

[26] - Brad Inwood:Stoic Ethics, OP,Cit,P.682-683

[27] -Tad Bernnan:,OP,cit,.P.158

الحالات هي شواذ القاعدة [٢٨]، ونخلص من ذلك إلي سلسلة من الحقائق بعضها جيد والآخر سئ علي النحو التالي[٢٩]:

- **من الحقائق السيئة معرفة أن البشر جميعاً أنانيون بطبيعتهم ومتمركزون حول أي قيمة يؤمنون بأهميتها .**
- **من الحقائق الجيدة أن البشر يختزلون كل الأحداث من حولهم بحيث لا يرون شيئاً علي الإطلاق بإستثناء الفضيلة .**
- **من الأخبار الجيدة أن البشر بإمكانهم التصرف بحيادية تامة حيال مسألة توزيع الطعام والثروة وباقي الأشياء التي تدرج تحت مسمي الخيرات .**
- **ومن الأخبار السيئة أن البشر قادرون علي ممارسة مثل هذا الكرم الإيثاري بشرط اعتقادهم أن لا شئ من الأشياء التي يمكنهم مشاركتها يصنف علي أنه خير حقيقي وفي ضوء ما سبق يمكن القول بأن رغبات الإنسان غير قادرة تماماً علي إصلاح ذاتها، بل إن الإنسان هو الذي يتولي قيادتها من خلال استنشاقه لرائحة آدم التي بداخله، واعتبارها المحرك الفطري الذي يقوم بدفع رغباته تلقائياً نحو الخير، وأياً ما كانت رؤيته عن الخير سيجد نفسه يلاحق الخيرات بأنانية مكثفاً جهوده لنيلها بنهم واستئثار، ينطلق الناس إلي ما هو خلافي عن طريق التطبيق الخطأ، فلو كان الناس يملكون القدرة علي التطبيق إلي جانب أفكارهم الفطرية لما كان ثمة حائل بينهم جميعاً وبين الصواب[٣٠]، فالفضيلة أمر، والسعي إليها أمر آخر، وإن من يسعي للفضيلة ليس بعد إنسان فاضل، بل كان فضله أنه يسعي إليها لا غير[٣١]، والفلسفة تدفعنا إلي الفعل لا الكلام وتدفع كل إنسان أن يعيش وفقاً لمعاييره الخاصة، وإن حياته يجب أن تتصف بالتناغم مع مايقوله، وأن تكون حياته الداخلية ذات تناغم مع ما يقوم به من أفعال[٣٢]. وهكذا استطاع الرواقيون دحض التحديات التي واجهت نظريتهم عن النزوع الأخلاقي، وإكمال نظريتهم .**

---

[28] -Brad Inwood:Stoic Ethics,OP,Cit,P.684

[29]- Tad Brennan :OP,clt.,P.166-167

[٣٠] - إبكتيتوس: المرجع السابق ، ص١٤٨

[٣١] - عثمان أمين: المرجع السابق ، ص٢٠٩

[32] - Seneca:On Practising What You Preach,XX, in Epistulae Morales,I, Translated by Richard M. Gummere, Harvard University Press,1917,P.133

الخاتمة

وهكذا رأت الرواقية أن الإنسان يشعر منذ مولده بالنزوع الذي وهبته له الطبيعة نحو كل ما يتوافق معها، فيتبع هذا النزوع بداية بشكل فطري، ثم يتناسب تطور هذا النزوع تناسباً طردياً مع النمو العقلي للإنسان، فينتقل خلال مراحل نموه لمستويات أعلي من الوعي، تمكنه أولاً من اتباع هذا النزوع بشكل متعمد لإدراكه بأنه السبيل الوحيد لبلوغ الخير المتمثل في التزام الفضيلة، ثم يرتقي ليكتشف أن هذا الخير لا يصبح تاماً إلا إذا كان عاماً يشمل الكون بأكمله، وعند هذه النقطة يؤمن بوحدة الفضيلة، ليصبح معيار التفاضل بين الحكيم والإنسان العادي، هو ذلك التناسب الطردي بين نمو العقل وتطور النزوع .

لقد كان الهدف من الدعوي إلي اتباع ما من شأنه تحقيق السلام الداخلي والخارجي، هو خلاص الإنسان من العواطف والانفعالات التي تطغي علي مشاعره النزوعية النقية، فتغير اتجاهها الفطري نحو العيش وفقاً لقوانين الطبيعة، إلي العيش في عالم وهمي ما إن تطأه قدماه حتي يجد نفسه عالقاً في متاهة من الضلالات تودي به إحداها إلي الأخري، فيقف منها موقف المتفرج العاجز، فهو يدرك تماماً بشاعة ما آل إليه، لكنه عاجز عن الخروج منها، إما لتوغل الضلالات في قلبه أو لأنه لا يعرف طريق العودة، أما الأول فمثله كمثل من أصيب بالعمي والصمم، وذاك يحتاج لمعجزة ترد عليه بصره وسمعه، وقد عبر سينيكا عن هذا النوع بقوله: "أناسٌ استولي عليهم مظهر المجد الزائف فهم يمضون إلي الضلال في مظهرٍ محترم"، والثاني ليس أمامه إلا الطريق الرواقي الذي رسمه رواد الرواقية لتخليص الإنسان من ضلالات العقل، وإعادته إلي فطرته السليمة التي تقوده إلي اتباع قوانين الطبيعة .